سافونارولا

من المظاهر العجيبة التى تبدأ بها النهضة ، ويبدأ بها استيقاظ الشعوب ، ظهور رجال فى مختلف مناحى الحياة ، فى فترة معلومة ،لا يكون هؤلاء الرجال بالطبيعة من فكر واحد ومن مشرب واحد ، ولو كانوا يشتغلون بفن أو علم واحد ، وإنما تجمّعهم وتلاطم آرائهم ونظرياتهم هو الذى يخلف أثراً فى الحياة ويوجد نشاطاً تهب منه النهضه . والمتتبع لتاريخ النهضات يجد هذا المظهر واضحاً بيناً . فالنهضة الأوربية التى عمت إيطاليا فى القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى البلاد الأوربية الأخرى تميزت بظهور مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ ، كما تميزت أزمان الثورة الفرنسية . وكأن هؤلاء الرجال نموا من الأرض الايطالية ، وظهروا فجأة فى جميع المدن التى كانت عندئذ عواصم لدويلاتها العديدة المتنافرة ، كما تنمو الأشجار من باطن الأرض .

لقد قيل إن النهضة الأوربية الحديثة ، وهى وليدة تلك النهضة التى عرفتها إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، قد نشأت عن أسباب أهمها سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك المسلمين ، وفرار علمائها بما كان بين أيديهم من آثار الفكر اليونانى إلى البلاد الايطالية . قد يكون هذا القول صحيحاً فى جانب منه ، ولكن المبالغة فيه قد لا تكون صحيحة . وقد فر حقيقة علماء من مدينة القسطنطينية ، وفروا بخزائن كتبهم وعلمهم الذى تلقنوه عن اليونان . ولكن هل كانوا يحدثون نهضة لو لم تكن العقول فى البلاد الايطالية متهيئة لاستقبال ما يأتون به من علم وفن ؟ الواقع أن التفكير فى الماضى المجيد لم ينقطع من أرض إيطاليا ، وكان هنالك رجال يتألمون للمجد الزائل ويعملون للاحتفاظ بالتراث القديم ، ولكنهم كانوا متناثرين فى مختلف البلاد ، فلا يكاد يظهر لجهودهم أثر لأن البلاد كانت قد توزعت وأصبحت نهباً فى أيدى الطامعين . غير أن الأرض الايطالية صارت فجأة خصبة بالرجال قبل عصر

النهضة بقرن أو قرنين ، أى قبل فرار العلماء من القسطنطينية ؛ اذ برز جمع من الرجال المتازين فى القرن الثالث عشر . وهل نحتاج للتدليل على صحة هذا القول إلى ذكر دانتى الشاعر الايطالى الذى نشأ وعاش فى مدينة فلورنسا فى القرن الثالث عشر وصار شاعراً لجميع الأزمان التالية ؟ وهل نذكر بطلا خياليا كنقولا دى رينزو ذلك الذى أراد فى القرن الرابع عشر أن يعود بروما وبايطاليا إلى سالف مجدها فى عصر الرومان ، وقد استطاع أن يحقق حلمه ولو لمدة قصيرة ؟ هل نذكر كبار الفنانين من مصورين ومثالين عرفتهم إيطاليا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر من أمثال جيوتو وبيزانو ؟ يكفى أن نقول إن أرض إيطاليا أخذت تنبت الرجال فى مختلف المدن والدويلات من النوع الذى يترك ذكرى مرسومة على وجه الأرض ، ثم تتابع هؤلاء الرجال وتشعبت آراؤهم وتلاطمت مجهوداتهم فكانت النهضة .

ظل يحتفظ لايطاليا ببريق من مجدها السالف ، بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، هيئتان : إحداهما حقيقة والأخرى خيال . فالأولى وهى الحقيقة ، هى الكنيسة الكاثوليكية التى تتمثل فى البابا وكرادلته وسيطرته الدنيوية والدينية . والثانية وهى الخيال ، هى سلطة الامبراطور الرومانى الذى أوجدته الكنيسة ، وهو لا يمت إلى أرض إيطاليا بشئ ، بل هو فى الحقيقة عاهل ألمانى تعترف له الكنيسة بسيطرة اسمية على إيطاليا لمجرد قوته وتفوقه فى الأداة الحربية التى كانت معروفة عندئذ .

وقد مضت على إيطاليا دهور وقرون فى النزاع بين هاتين السلطتين : سلطة البابوية الحقيقية فى إيطاليا بصفة خاصة وتمتد روحانيا إلى جميع البلاد المسيحية ، وسلطة الامبراطور التى يمنحها إياه البابا أو يضطر إلى منحها ، ولا يؤيدها فى الحقيقة غير القوة وليس لها من سند قانونى إلا الخيال .

وكان تطاحن هاتين السلطتين عادة على أرض إيطاليا ، وكانت الغلبة تتداول بين الفريقين ؛ ولكن النصر فيما أعتقد كان يرجح دائماً كفة السلطة الثابتة الباقية وهى سلطة البابوية . على أنه كان من نتيجة هذا التطاحن ضعف السلطتين وخروج كثيرين من الأقوياء ومن المفكرين عليهما ، وانتهى الأمر إلى ما أسلفنا من انقسام إيطاليا إلى تلك الدويلات الصغيرة المختلفة المتنافرة

ومن بزوغ التفكير الحر الذى لا يتقيد كثيراً بأوامر إمبراطور أو كنيسة .

ومما لا ريب فيه أن روما فى تلك العصور التى أشرنا إليها والتى أخذت تظهر فيها بشائر النهضة كانت مطمح أنظار العالم ؛ بيد أننا لا نستطيع أن نقول إنها البلد الذى قامت فيه نهضة إيطاليا ، بل ربما كانت روما بمركزها العتيد بوصفها مقرا لحكم البابا ، أقرب إلى المحافظة على القديم من غيرها من الدويلات الايطالية . ولا تتمثل النهضة الايطالية فى مدينة البندقية مع بعدها كل البعد عن بلاط روما ، واتصال أبنائها بجهات العالم أجمع ، وما كان لها من أسطول تجارى واسع ومعاملات مع مختلف الأقطار ؛ فان البندقية كانت تهتم بالتجارة والمعاملات التى تدر مالاً أكثر من اهتمامها بالنزعات الفكرية ؛ فهى تضع المال فى المرتبة الأولى ونتاج الفكر فى المرتبة الثانية . وإنما تتمثل النهضة حقا بأجلى مظاهرها فى بلد صغير فى وسط إيطاليا كان مركزاً لدويلة صغيرة ولكنها دويلة قوية بنظامها ورجالها الذين نبغوا فى مختلف العلوم والفنون ، وهذا البلد هو مدينة فلورنسا .

كانت مدينة فلورنسا بنظامها قابلة لأن تكون مركزاً للنهضة . فنظامها فيه شئ كبير من الحرية ، وأبناؤها غُيُرٌ على مجدها يحبون أن تكون مدينتهم خير المدن فى العالم . ولسنا نريد أن نعرض لوصف نظام الحكم فى فلورنسا ؛ فانك تجد له شرحاً وافياً فى الكتاب الذى أثار موضوع هذا المقال وظهر حديثاً فى عالم المطبوعات العربية [1] ، ولكن يكفى أن نقول إن هذا النظام الجمهورى كان بديعاً إذا لاحظنا العصر الذى وجد فيه ، وكانت الأسر فى مدينة فلورنسا تتنافس فى تشجيع الفنون والآداب وهى بثرائها كانت تستطيع أن تفعل كثيراً .

وكانت أبرز أسرة فى ذلك العصر أسرة مديتشى ، وهى أسرة عريقة استطاعت فى قرون أن تكون لها الصدارة على الأسر الأخرى بثرائها ؛ إذ كانت تعمل فى التجارة وتمتهن الأعمال المصرفية ، واستطاع زعيمها فى أواخر القرن الرابع عشر أن يكون المسيطر على الأمور فى مدينة فلورنسا ، إلا أنه كان بعيد النظر حكيماً فأبى أن يمس النظام الجمهورى واتخذه وسيلة للحكم ، فكان الحاكم المتصرف فى

---

(١) «سافونارولا» تأليف الدكتور حسن عثمان ، أصدرته دار الكاتب المصرى ، فى مارس ١٩٤٨ .

ثوب الزعيم الذى ليس له من الأمر شئ . وعندما توفى كوزيمو دى مديتشى حاول خصومه من زعماء الأسر الأخرى أن ينحوا أبناءه ، ولكن لورنزو استطاع أن يحل محل أبيه فى الزعامة ، وهو الرجل الذى ترك اسما مخلداً فى مجال الآداب والفنون ، وجعل من فلورنسا قبلة يقصدها كل من يريد الاتصال بالحياة الفكرية . وكان لورنزو حر التفكير ؛ أقبل على التراث اليونانى والرومانى فى نهم ، حتى اتهم فى دينه وحتى ظنت به الظنون وهو لا يبالى ؛ فكانت حياته أقرب إلى الحياة التى كان يحياها المترفون فى عصر اليونان والرومان فى الأزمان الوثنية. وكان يبذل النفيس فى سبيل اقتناء الكتب القديمة ، ويشجع على الترجمة والنقل. وقد وجد العلماء الذين فروا من القسطنطينية منه ترحيباً ، وصار قصره بمثابة أكاديمية تلقى فيها المحاضرات فى شتى العلوم القديمة ويحضرها الشبان والرجال ويناقشون ما جاء فى هذه المحاضرات من آراء جديدة .

ولا نريد أن نسترسل فى وصف عصر لورنزو دى مديتشى ؛ فهو عصر يشار إليه كلما تكلمنا عن النهضة الأوربية .

ومع ذلك ظل لورنزو محتفظاً بخضوعه الظاهر لتعاليم الكنيسة وكان يخشى غضب البابا عليه ، وعندما حضرته الوفاة وهو فى الرابعة والأربعين من عمره دعا إليه راهباً ليعترف له بآثامه حتى يستطيع بالاعتراف أن يمحو هذه الخطايا . وأرسل فى طلب راهب شاب كان قد أخذ يشتهر بين الناس فى فلورنسا بحماسته الدينية ، وهو شاب من أهل مدينة فرارا ولكنه انتقل إلى دير الرهبان من مذهب الدومينكيين فى فلورنسا وهو دير سان ماركو ، وكان هذا الشاب مخلصاً فى دينه وجريئاً .

ودخل الشاب على الرجل العظيم ، واعترف له العظيم بذنوبه . وهنا اختلفت الرواية ؛ فيقال إن الراهب الجرئ عنفه تعنيفاً شديداً وأبى أن يستغفر له عن خطاياه . ويقال إنه استغفر له بعد هذا التعنيف وفى كلتا الحالتين كانت جرأة لا يقدم عليها إلا شاب مخلص لدينه لا يهمه بأس العظماء ، كما كان وقتئذ وكما بقى دائماً ، جاكومو سافونارولا .

*

كان سافونارولا فى الأربعين عندما دعى ليزور لورنزو عظيم فلورنسا وهو على سرير الموت ، وقد طارت له شهرة فى تلك المدينة العابثة وفى وسط عظمائها

المنغمسين فى اللذات بالتقى والصلاح ، ولكنه لم يكن اشتهر بما اشتهر به فيما بعد من تملك الأفئدة والتسلط على الأذهان بسحر كلامه فى المواعظ التى يلقيها . والحقيقة أن سافوناروﻻ لم يكن خطيباً مفوهاً ولم يكن حسن البيان بليغ العبارة ، بل لم يلحظ المستمعون إلى مواعظه فى تلك الأيام فى قوله ما يميزه على أى واعظ من الوعاظ العديدين فى الكنائس الأخرى ، بل ربما كان أقل من غيره بياناً ، وإنما كان يسلك فى مواعظه مسلكاً لم يك يومئذ مألوفاً ؛ فقد ألف الفلورنسيون أن يكون الخطيب ، حتى الخطيب الواعظ فى الكنائس ، مطلعاً على الشعر القديم من آثار اليونان والرومان . فكان الواعظ يقلد القدماء من الخطباء ولا يأنف أن يقول شعراً أثناء موعظته ، ولا أن يضحك السامعين بنكاته ولعبه بالألفاظ . فكان الفلورنسيون ينتظرون فى الكنيسة مثل ما ينتظرون فى دور المسارح حديثاً عذباً فيه رنين وفيه فكاهة ؛ فلا يجمل بأهل فلورنسا المتمدنين أن يغشوا الكنائس فيسمعوا تأنيباً على الذنوب وتهديداً بالعقاب ، فوعاظهم رجال من بنى عمومتهم يقومون بالوعظ على أنه مهنة يراد بها تذكير الفلورنسيين بديانتهم كى يكون للكنيسة نصيب من دنياهم .

ولكن الراهب سافوناروﻻ كان رجلا من طراز آخر ، رجلا قوى الاعتقاد بالدين شديد الحماسة فى حمل النفوس على الاستمساك بالفضيلة ولم يكن يتألق فى عباراته ، بل تجد فى مواعظه خشونة قد تتحول فى بعض الأحيان إلى عنف . على أن أكثر ما أثر فى جمهوره هو حماسته الدينية .

لسنا نريد أن نعرض لحياته تفصيلا ، ولا أن نذكر كيف استولى على عقول أهل فلورنسا ، وإنما نريد أن نذكر أنه استطاع تدريجياً أن يجد السبيل إلى قلوب سامعيه . فكان أهل المدينة يتقاطرون على مواعظه ، وكانت كلماته تؤثر فيهم فيذرفون الدمع غزيرا . ويبدأ ينذرهم ويطلب إليهم أن يقلعوا عن مظاهر الحياة الدنيا ، وأن يتركوا ما انغمسوا فيه من ملذات ، ويتوعدهم بالعقاب إن هم استمروا فى لهوهم ، وأخذ القوم يستمعون إليه وتتفتح أذهانهم لمواعظه . ولم تمض سنوات حتى صار سافوناروﻻ أهم رجل فى مدينة فلورنسا . وكان من خصائص وعظه أنه كان يتكهن بما يدبره المستقبل للمدينة وللمدن الايطالية ، وبكوارث تحل بها . وحدث فعلا أن تعقدت الأمور فى إيطاليا

وتحققت تكهناته ، وزاد اعتقاد الناس به وطارت له شهرة فى أنحاء البلاد الايطالية .

وجاء وقت صار حكام المدينة يأتمرون بأمر سافونارولا ؛ فهو بين سنتى ١٤٩٤ ، ١٤٩٨ كان هو الحاكم الحقيقى للمدينة والمسيطر على أمورها ؛ كل ذلك كان بسحر كلامه البعيد عن التنميق ، الخشن فى اللفظ والعبارة ، الملئ بالتهديد والوعيد ، المعتمد على التكهنات وما توحيه الأحلام .

كيف كانت الخطوات التى سيطر بها سافونارولا على أهل فلورنسا ؟ ذلك ما نستطيع أن نقرأه فى تاريخه . على أنه يتعين علينا أن نكون على ثقة من أمر واحد ، هو أن هذا الرجل كان مسوقاً بأنبل العواطف ؛ فهو كما أشرنا أكثر من مرة لم يكن خلاباً بجمال العبارات وحلاوة الأسلوب ، وإنما كان خلاباً بحماسته ويقينه . وانقادت له فلورنسا ونبذت ما كانت عليه من انكباب على الملذات ، وانقلبت تقية تتحلى بالفضائل ، أو على الأقل تظهر بمظهر ذى الفضيلة . ولكن العجيب فى الأمر أن يتأثر الناس بهذا الراهب حتى يستشيروه فى كل أمر من أمور دنياهم ودينهم ، ويأخذوا برأيه فى تصريف أمور الحكم ؛ وهو يشير عليهم حتى فى هذه الأمور بدافع من ماذا ؟ من تجربته ؟ لا ! بل من تأثير الأحلام والرؤى .

ومع ذلك لم يكن الراهب رجلا مشعوذاً ولا رجلا مخبولا ، وإنما كان حسن الرأى فى أكثر الأمور . وقد بدت على مدينة فلورنسا فى ظل مشورته ، إن لم نقل حكمه ، مسحة من الوقار كان من الواجب أن يعجب بها رجال الدين ، وكان من الواجب أن يغتبط لها البابا رأس الكنيسة . ولكن لا هؤلاء ولا ذاك ارتاحوا لما بلغه الراهب من مركز بين أهل المدينة التى اتخذها مقاماً .

لم يرتح رجال الدين لمنزلة سافونارولا لأنه جذب أهل المدينة إليه فلم يعودوا يستمعون لغيره من الوعاظ ، وصار أهل المدينة يفضلون رهبان كنيسة سان ماركو على غيرهم . وقد اصطبغت المدينة بصبغة الجد ، فلم تبق هناك سوق لأولئك الرهبان الذين كانوا يغشون دور العظماء ليرتزقوا منهم . ولذلك أخذت نفوس هؤلاء الرهبان تمتلئ حقداً على الراهب الذى سيطر على المدينة ، وكان قد بلغ وقتئذ مرتبة رئيس الرهبان فى دير سان ماركو .

أما البابا ، فذلك له شأن آخر وقصة أخرى .

قد يكون من أكبر الدلائل على ثبات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية واستقرارها على الدهر ، أن تولى عرشها رجال من أمثال إسكندر الثالث ويوليوس الثانى وليون العاشر فى عهد النهضة الايطالية . ففى تلك الأيام نزع أكثر الناس ، لا سيما المتعلمون ، أمور الدين وأخذوا بأسباب الدنيا ، فأغرق فى ذلك فريق أعجبوا بآثار اليونان والرومان ، فأرادوا أن يقلدوهم فى كل شئ حتى فى وثنيتهم . واعتدل فريق فأخذ يقبل على آداب اليونان والرومان ويعجب بذلك الماضى المجيد ، ولكنه كان لا ينسى واجبه الدينى .

وهؤلاء البابوات الذين ذكرناهم على ما بهم من فضائل كانوا رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ؛ فهم يمثلون العصر الذى عاشوا فيه كل التمثيل ، وهم بذلك يدلون على متانة ذلك النظام العتيد ومرونته وهو نظام الكنيسة . لقد اتجه الناس نحو أمور الدنيا ، فأدت مرونة النظام إلى أن يكون البابوات رجال دنيا ومثلوا بذلك عصرهم . فاسكندر السادس من آل بورجيا الاسبانيين كان رجل دنيا بمعنى الكلمة . والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندافع عن مسلكه ، كما أن المؤرخين ، حتى الذين كتبوا منهم تحت إشراف الكنيسة، لم يستطيعوا تسويغ أعماله ومسلكه فى سياسته وفى شخصه ، على أنه لا يستطيع أحد أيضاً أن يتهمه بأنه كان يهمل واجباته الدينية . وكان على الغالب محبوباً من الذين يتصلون به . ففى قامته الطويلة نوع من المهابة ، وكان يقيم الحفلات الباهرة كأى ملك من الملوك ، وكان يحب الفكاهة ؛ ومع ذلك كان لا يتورع عن إزالة أى خصم سياسى من طريقه بالحيلة أحياناً وبالعنف أحياناً كثيرة .

أما يوليوس الثانى فكان من أعظم البابوات الذين جلسوا على عرش القديس بطرس ، وهو الذى عمل لاعادة بناء تلك الكنيسة العظيمة بروما التى تعد أعجوبة الكنائس جميعا ، وهو الذى استخدم أعاظم رجال الفن من أمثال رفائيل وميكل أنجلو . وكان رجلا قليل الشهوات لا يؤخذ عليه شئ فى مسلكه أيام توليه عرش البابوية ، ومع ذلك كان رجل دنيا ؛ فهو يحب أن يسير الجيوش على خصومه ويتولى قيادتها بنفسه ويحاصر المدن ويلبس أحياناً عدة القتال .

أما ثالثهم ليون العاشر فهو من آل مديتشى ، وكان يشجع العلوم والفنون ويقال إنه أولع بكتب الأقدمين حتى كاد يفضل أساطير الوثنية على حقائق

المسيحية . وكان رجلا شديد الحيلة مع خصومه متقلباً فى سياسته لا يثبت على وعد أو عهد .

تلك صور البابوات الذين عاصروا النهضة فى كلمة ، فهم رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين ، وهم رجال يمثلون عصرهم حق التمثيل .

وقد عاصر سافونارولا أسوأهم فى السياسة وفى المسلك الشخصى . أما المسلك الشخصى للبابا إسكندر السادس فلا نريد أن نخوض فيه ، لأن كتب التاريخ ذكرت ما فيه الكفاية ، وقد يبالغ بعض هذه الكتب أحياناً ، ولكن أشفقها على هذا البابا لم يستطع أن يجعل من مسلكه الشخصى صفحة نقية . وهذا دون أن نتعرض لما روى عنه من قصص وما أضافه إليه خيال الناس ، فهو أكثر البابوات موضوعاً للأقاويل . وأما سياسته العامة مع الدويلات الايطالية ومع الأمم الأخرى التى كانت تخضع له فى دينها ، فهى سياسة منطوية على المكر والخديعة ، فهو لم يكن يفى بعهد إذا رأى أنه يقف فى طريق أغراضه . وكان لا يؤمن جانبه مهما بذل من وعود ، وكان لا هم له فى سياسته إلا الاعتداء على البلاد ليهىء لأبنائه المعترف بهم علنا إمارات يحكمونها .

ونعود فنقول إن أكبر دليل على متانة نظام الكنيسة الكاثوليكية أنها هضمت رجلا مثل البابا إسكندر السادس ؛ إذ لم يستطع مع كل ما أتاه أن يودى بالكنيسة ونظامها ، بل ظلت الكنيسة قائمة متينة البنيان محترمة فى أعين الناس جميعاً .

سيطر سافونارولا على مدينة فلورنسا وصار حاكمها طوع إشارته . ولم يكن الراهب خفيف الوطأة قليل التسلط ، بل أخذ ينفذ آراءه فى عنف وشدة ، فهو قد دعا الناس إلى الأخذ بأسباب الفضيلة وإلى نبذ وسائل الترف ، ولم يتركهم لضمائرهم ، بل أخذ يبتدع الوسائل لمراقبتهم . وكانت إحدى الوسائل التى اتخذها وضاق بها الناس أن جعل من الصبية عيوناً على أهلهم ، فكان الصبية ينقلون إليه أخبار أسرهم ويصفون له ما ارتكبه آباؤهم أو أمهاتهم من آثام بشراء أدوات الزينة مثلا . وقد طلب إلى هؤلاء الصبية أن يجمعوا له هذه الأدوات . وفى أيام موسم المساخر ، التى كانت مألوفة فى فلورنسا كما هى مألوفة فى المدن الأخرى من إيطاليا ، جمع أدوات الزينة والترف التى نقلها إليه الصبية وأقام

ما سماه عيد إحراق وسائل الترف ، ولكن هذا العيد لم يكن أقل سخرية من المساخر نفسها .

ولقد غلت النفوس بهذا التدخل فى حياة الأسر المرة بعد المرة ، وضاق الناس لاسيما الأغنياء به ذرعاً ، وأسرف هؤلاء الصبية الذين كانوا يأتمرون بأوامر الزعيم الراهب ، وضاقت حياة التجار الذين كسدت بضاعتهم بسبب تسلط الزعيم وتحريمه على الناس شراء ما هو كمالى ، مع أن مدينة مثل فلورنسا كانت من أكثر المدن ثراء وإقبالا على الزينة والترف . وهكذا أخذت النفوس تنصرف عن الراهب . ولكن الناس لم يكونوا قادرين على أن يبدوا استياءهم جهرة بسبب بسيط ، هو أن كل الرجال الذين كانوا يتولون الحكم فى تلك الفترة كانوا من أنصاره .

وكان فى النظم الجمهورية التى تتبعها فلورنسا على ما بها من فضائل عيب أساسى واحد ، هو تغيير أعضاء مجالس الحكم فى فترات قصيرة لاتتجاوز بضعة أشهر ، وكان هؤلاء الأعضاء دائماً فى تلك الفترة من رجال سافونارولا .

وكان من المستطاع أن يظل تسلط الراهب فترة طويلة لو أنه كان كبير الحيطة فى سياسته . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقول إن سافونارولا لم يكن فى تدبير الأمور على جانب كبير من الذكاء والدهاء معاً ولكن كان يفسد هاتين الميزتين عاملان : أولها شدة التحمس التى كانت تدفعه إلى نوع من التسرع . والثانى اعتماده على ما توحيه الأحلام . وقد نفهم ذلك منه حين نلقى نظرة على صورته ، فذلك الوجه المصفر النحيل ، وذلك الفم الواسع ذو الشفتين الغليظتين اللتين نكاد نتبين ارتعاشهما فى الصورة ، كل هذا يدل على أنه رجل يعيش بأعصابه ، وإن كانت العينان الواسعتان تنبئان فى الوقت نفسه بأنه رجل خاضع للأحلام .

وقد نحب أن نسأل أين كانت فى هذا الزمن شخصية فذة من أبناء فلورنسا ، هى شخصية رجل عرف بكل الصفات التى تتعارض مع صفات سافونارولا ، وهى شخصية ذلك الكاتب الذى اتخذ فى كل زمان مثالا للواقعية الجريئة وأعنى به نيقولا مكيافيللى ؟ الواقع أن مكيافيللى كان وقتئذ صبيا ليس ببعيد أن يكون من الصبية الذين سلطهم سافونارولا على أهلهم كما يتسلط الوباء . ولكن لم يثبت مطلقا أنه كان منهم فهو إذا كان قد أشار إلى الراهب بشئ

من الاجلال فهو لم يفعل ذلك غير مرة فى جميع كتبه ، مما يدل على أن سافونارولا لم يترك فى نفسه أثراً . والواقع أن الرجل الذى كان يرى فى قيصر بورجيا ابن البابا إسكندر السادس مثالاً لما يجب أن يكون عليه الأمراء مع كل ما اشتهر به هذا العامل من قسوة وجرائم ، لايمكن أن يعطف على الراهب وأحلامه فى تحقيق عالم مليء بالفضيلة .

ولا ريب فى أن سافونارولا كان يريد أن يحقق ما لا يمكن تحقيقه ، وكان يريد أن يرجع بعجلة الزمن القهقرى . ولكن العصر الذى كان يخضع فيه الناس للأنبياء قد مضى ، وكانت الروح الوثنية قد تخللت الطبقة العليا فى جميع الدول الايطالية واتصلت حتى بالدوائر الدينية ، فكيف ينتظر أن يستطيع رجل مثله أن يغير من طبيعة الناس ؟

ومع ذلك كان من المحتمل أن يظل سافونارولا مسيطراً على المدينة ومؤثراً فى الدويلات الايطالية لو لم تتعارض سياسته مع سياسة البابا ، فهو فى حماسته الدينية وفى تسلطه على القلوب والعقول كان جديراً به أن يكون من أقوى عمد الكنيسة الكاثوليكية ، فقد استطاع لفترة طويلة أن يحيى بذور الدين فى مدينة كانت من أبعد المدن عن الدين . ولاريب فى أن البابا اغتبط بذلك، وهذا هو السبب الذى من أجله رفعه إلى مرتبة رئيس دير سان ماركو . وكان سافونارولا من جهته حريصاً على إرضاء رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنه فى اندفاعه وحماسته لمدينة فلورنسا نسى أن للبابا إسكندر السادس سياسة خاصة ونسى أنه لابد أن يخضع للبابا فى سياسة أمور المدينة إذا أراد إرضاءه . ولكننا نراه يؤازر خصما للبابا فى سبيل صالح فلورنسا ، ونراه يمجد أعمال خصم للبابا وينادى به منقذاً للحالة بايطاليا فى سبيل تحقيق النبوءات التى أعلنها من منبره . يضاف إلى ذلك أن تلك الظروف لم تكن لتخفى على الخصوم الكثيرين للراهب ، وهم يعرفون كيف يستفيدون منها . ولا ننسى أيضاً أن تقوية فلورنسا على الصورة التى عمل لها الراهب ، كان مما يجعلها تقف حائلا فى سبيل ذلك البابا الذى كان من أمانيه أن يجمع تلك الدويلات الايطالية ، أو على الأقل أن يجمع أكثرها فى ملك واحد ، تحت ابنه قيصر بورجيا ، وكان إقليم فلورنسا من أقرب الأقاليم إليه . وكلما ازدادت قوة المدينة

تحت تأثير حماسة الراهب ووطنيته ، صارت لقمة ليس من السهل ازدرادها .

وكان البابا مع ذلك يحسب حساباً لنفوذ الراهب وسلطانه القوى ، فبدأت بينهما تلك الحوادث التى لا نريد أن نذكر تفاصيلها لمن يستطيع أن يقرأها فى الكتاب الذى أتيح لقراء العربية . وإنما نعرض للطريقة الطريفة التى ابتدأ بها البابا هجومه على الراهب ، فقد أرسل إليه خطاباً لطيفاً يدعوه إلى روما للتحدث فى شأن الرؤيا التى قيل إنه رآها فيا يرى النائم ، والنبوءات التى تنبأ بها . وفهم الراهب مايتعرض له من خطر فاعتذر بمرضه ، وأنه لايستطيع أن يتحمل مشاق السفر ، وأعرب عن خضوعه للبابا وإخلاصه له . وعاد البابا يلح على الراهب فى أن يشخص إلى روما وعاد الراهب يعتذر . فلم يكن أمام البابا إلا أن يطلب إلى حكام المدينة إرسال الراهب إلى روما ، وكان الحكام من رجال سافونارولا فاعتذروا . وهنالك أصدر البابا أمراً للراهب بأن يمتنع عن الوعظ والتنبؤ للناس . وخضع الراهب وقتاً ما ، ولكنه عاد إلى الوعظ وكأنه قد عزم على التحدى ، وأخذ يتكلم عن فساد بلاط روما ويدعو أمراء المسيحية إلى عقد مؤتمر لانقاذ الكنيسة الكاثوليكية . وابتدأ النضال بين أنصار الراهب وخصومه ، وظهر هؤلاء الخصوم متألبين ، وقد شد من عزيمتهم سطوة البابا الذى كان ينذر ويتوعد بانزال غضبه وحرمانه على أهل المدينة إن لم يتخلصوا من ذلك الراهب العاصى . وانتصر خصوم الراهب فى الانتخابات وتولوا الحكم ، فصار رجال الحكم من خصوم الراهب .

وحدثت تلك المأساة حين تحداه الرهبان من خصومه بأن يجرب تجربة النار دليلا على صدقه ، وهى تجربة كانت معروفة فى القرون الوسطى ، وهى تقضى بأن يمر داخل شعلة من نار ، فان كان صادقاً فى دعواه فسينقذه الله من شرها ، وإن كان كاذباً فسيصلى نارها ويذهب إلى الجحيم ؛ ولا نريد أن نذكر ما حدث فى ذلك اليوم من شغب بين الرهبان وانطفاء الشعلة التى أعدت على أثر مطر غزير ، ثم ما كان من القبض عليه والتحقيق معه وتعذيبه مع بعض أنصاره من الرهبان ثم إعدامه .

كان سافونارولا شخصية من أكبر الرجال الذين ظهروا فى عهد النهضة ومن أطهرهم وأشدهم وطنية وأبعدهم عن الآثام ، ولكنه كان رجلا متأخراً

عن عصره ، فكان من الصعب أن ينجح طويلا فى غرضه ، وكان من المستحيل أن تنجح سياسته إذ لم يكن ذلك العصر ميداناً للزعماء الطاهرين ، بل كان عصر أولئك الذين كبرت آثامهم كما كبرت مراكزهم . ولو أن مدينة فلورنسا تمسكت به لوجد البابا سبيلا إلى مقاتلتها وتأليب الدويلات عليها ، ولعله كان لايفعل إذا آنس فى نفسه عدم القدرة ، بل يلجأ إلى طريقة أخرى عرفها أمراء الدويلات الايطالية فى ذلك العصر وعرفها من بين البابوات إسكندر السادس من آل بورجيا . والطريقة بسيطة ، هى خنجر يرسل فى يد رجل مغامر أو كأس شراب يحتوى مادة سامة ، فهذه الطريقة كان يلجأ الأمراء إليها إذا رأوا أن للخصم أنصاراً ، وقد يثير تحديه متاعب كبيرة .

ومن المحقق أن البابا إسكندر السادس حين طلب إلى سافونارولا أن يشخص إلى روما لمناقشته فى نبوءاته وفى أحلامه كان يعمل بوصفه رئيسا للكنيسة الكاثوليكية ، ولكنه كان يعمل بوحى من سياسته . لأن دعوة سافونارولا إلى الفضيلة كان من الواجب على الرئيس الدينى الأكبر تشجيعها ، لا سيما أن الراهب أظهر مقدرة فائقة على التأثير فى العقول ، ولكنه بدخوله معترك السياسة خاض بحر المخاطر ، فأودت السياسة به وبدعوته ، ولم تبق إلا ذكراه العاطرة .

حسن محمود